

مسرحية «كليلة ودمنة» على خشبة الباربيكان

لندن: لؤي عبد الإله

حينما ذهبتُ لحضور أول عرض لهذه المسرحية يوم 10 مايو (ايار)، ظننت أنها ستدور حول حكايات كليلة ودمنة. وهي كما قرأها الكثير منا خلال مراحل عديدة من حياتنا، تقدم عبر الحكاية الرمزية التي يكون أبطالها حيوانات مختلفة الحكمة والنصيحة، وهي موجهة أكثر للملوك آنذاك مما هي للعامة وأصلها هندي، ثم ترجمت إلى الفارسية ليأخذها عبد الله بن المقفع ويترجمها إلى العربية بأسلوب رصين ومتحرر من ثقل السجع، مكتشفاً أبعاداً جديدة للنثر العربي. لكن المسرحية التي قدمت في لندن على مسرح الباربيكان كانت حول الكاتب نفسه، وحول تلك السنوات العشر الأولى منذ بروز الدولة العباسية عام 750 ميلادية وعام 759. وإذا كان هناك خط سردي يتابع الأحداث في حياة المقفع، الذي احتل موقع كاتب البلاط في زمن أبو جعفر المنصور، ثاني خليفة عباسي ومؤسس بغداد، فإننا نتابع أيضاً ما يعنيه تأسيس تلك الدولة التي استمرت حوالي خمسة قرون. فمع بروزها على أنقاض الدولة الأموية، طال العنف أولاً أولئك المثقفين الذين كانوا يتعاونون مع الأمويين، مثل عبد الحميد الكاتب، الذي خدم آخر ملك أموي. حيث يتم قتله في أول مشهد من المسرحية. وإذا كان ابن المقفع على استعداد للتضحية بحياته لإنقاذ صديقه، فإنه في الوقت نفسه يتقبل منطوق ذلك العصر. فهو يقول حينما يخبره عبد الحميد بمقتل عدد من المثقفين وتلون دجلة بالأحمر لثلاثة أيام: «إنها ليست حرباً، إنها مجرد ثورة صغيرة، ومعها يتم قطع رؤوس قليلة».

في وضع ابن المقفع كمتروجم لـ«كليلة ودمنة» وكاتب للوالي عيسى بن علي خلال تلك المرحلة الحرجة، إشكال عميق. فهو عليه أن يصطف مع سيده في مؤامراته لتصفية خصومه السياسيين، من عمه عبد الله بن علي إلى والي خراسان أبو مسلم الخراساني، الذي كان وراء انطلاق الثورة ضد الأمويين. وفي مساعي ابن المقفع لتحقيق الإصلاح وإنقاذ من يمكن إنقاذه من القتل وقع ضحية بيد أبو جعفر المنصور، ولم يكن صعباً إصاق تهمة الزندقة به لتقطيع جسده. لكن العرض لا يكتفي بسرد الحكاية عبر المشاهد المتتالية، بل هناك إمتاع بصري وموسيقي مع مزج ما بين فصول من حكايات كليلة ودمنة تنقل بالعربية وتترجم على شاشة بالإنجليزية أو بالعكس، إضافة إلى استخدام أقنعة الحيوانات ليهدم الفاصل بين جنود الخليفة وأبطال «كليلة ودمنة». مع مسرح سليمان البسام تتداخل وسائل التعبير المختلفة، ويتداخل ما هو متخيل وفتنازي مع ما هو واقعي. إضافة إلى ترك مساحات لذاكرة المتلقي لملء الفراغات التي يتركها النص. هنا يصبح المسرح كرنفالا حقيقياً يخاطب حواس المشاهد البصرية والسمعية أيضاً إضافة إلى مخيلته ومنطقه. ما أوحى به هذه المسرحية بشكل غير مباشر، هو ما يجري في العراق. فكان بناء دولة جديدة بعد انهيار سابقتها عمل يتسم بالكثير من الشرور والقسوة، وما نواجهه اليوم هو صورة عما ساد في بداية تشكل الدولة العباسية. ولعل بناء بغداد والإشارة إليها في المسرحية هي ربط بما يجري حالياً فيها. وهنا ينهل البسام من شكسبير ومسرحياته التاريخية، التي سعت إلى قراءة الحاضر من خلال شخصيات تنتمي إلى الماضي، وهذا ما يجعلنا نتلمس حضور شكسبير في أعماله المختلفة، مثل مسلسل الملوك السابقين لبريطانيا أو للأباطرة الرومانيين. كذلك فإن البسام سبق له أن اقتبس وأخرج مسرحية هاملت لشكسبير وقدمها بالعربية بعنوان «قمة آل هاملت» وفيها طوع النص لقراءة الحاضر العربي الحالي. ما هو جديد في فرقة سليمان البسام، هي أنها تضم ممثلين من بريطانيا والعالم العربي، وتشارك في صياغة أعماله قدرات عديدة في مجالات الفنون البصرية والسمعية من أكثر من بلد. وكأن الهدف من وراء ذلك هو استثمار كل ما أنجز من خبرات ومهارات في التجربة المسرحية العالمية الحديثة في تطوير التجربة المسرحية العربية. حصلت هذه الفرقة على جوائز كثيرة خلال السنوات الأخيرة، فقد فازت بجائزة ادنبرة مسرح الضواحي Fringe Theatre بينما فازت بأحسن إنتاج وأحسن إخراج في مهرجان القاهرة الدولي.



الأربعاء غرة صفر 1427هـ - 1 مارس

حاصلا على جائزة الدولة التشجيعية، ومشاركا في مهرجانات أدنبرة والقاهرة وطوكيو الدولية البسام: العمل الثقافي في نظر المؤسسة عمل هواة.. و"كليلة ودمنة" مشروع ملحمة تاريخية

كتب ماجد سلطان:

لن يكون برنامج المؤلف والمخرج المسرحي سليمان البسام لهذا العام من دون محطات جديدة ستأخذه إلى بعض العواصم والمدن الشرقية والشرق أوسطية والغربية بعمله الجديد " كليلة ودمنة" والذي سيشهد عرضه الرسمي الأول في العاصمة اليابانية طوكيو في العاشر من مارس الجاري. ومن المتوقع تقديم سبعة عروض في طوكيو قبل انتقاله إلى كيوتو في التاسع عشر من الشهر ذاته. إلى مجموعة من العواصم والمدن، ما بين الشارقة، وأبو ظبي، وبيروت، وبريطانيا في كل من غلاسكو ولندن وأكسفورد.

وقد بدأ تقديم ثلاثة عروض لكليلة ودمنة تنتهي اليوم الأول من مارس ضمن الموسم الثقافي الحالي لدار الآثار الإسلامية و عروض العمل التحضيرية ما قبل اكتمال العمل حسب تصورات البسام للعمل المسرحي، والذي يراه عملاً حياً متطوراً و قليلاً للتطوير مالم، ربما، يرضي طموحه الفني.

البسام الذي تحدث معنا حول عمله الجديد " كليلة ودمنة " و السابق والذي عرف العالم المسرحي موهبته وجهوده الفنية من خلاله، " مؤتمر هاملت " وقدمه في عدد من المهرجانات والعواصم وأعطاه شهرته التي تدفعه لتقديم أعمال لا تقل قيمة عن هذا العمل والذي لا يزال يمكن تقديمه إلى جانب عمله الجديد.

الطريق إلى النجاح

"لست سنوات كنت أكافح في إنجلترا بأعمال وتجارب مسرحية، ولأسباب عديدة لم أستطع اختراق "قصر النجاح"، فقد واجهت صعوبات في بريطانيا " يقول البسام، ويضيف " أول عمل ناجح استطاع تحقيق أثر كبير هو "مؤتمر هاملت " في إطار مهرجان أدنبرة الدولي عام 2002 والذي بدأ بمغامرة ذاتية وتمويل ذاتي. افترض فيها البسام من أحد البنوك ليقدم هذا العمل في مهرجان أدنبرة. وللمفاجأة فقد استطاع العمل تحقيق جائزة النقاد للابتكار في الإخراج والتأليف. وانتقل العمل إلى مهرجان القاهرة التجريبي في العام ذاته، وبتمويل ذاتي استطاع العمل تحقيق أفضل جائزتين من لجنة الحكام حينما أحرز جائزة أفضل إخراج وأفضل عمل متكامل.

على إثر هذا النجاح تلقى البسام وفرقته " زاووم " عرضاً لتقديم هذا العمل من وزارة الثقافة اليابانية عبر " المؤسسة اليابانية Japan Foundation على أن يعرض باللغة العربية في افتتاح مهرجان طوكيو الدولي. وقدم العمل في طوكيو في فبراير من العام 2004. ومن هناك بدأ صداه العالمي في المهرجانات المختلفة من مهرجان شكسبير في بريطانيا الى عروض أخرى في بولندا وسنغافورة. ولمدة سنة ونصف والعمل يتجول عالمياً ويحقق النجاح في كل مكان. فهو "العمل الذي تكاملت فيه كل عوامل النجاح" حسب قول البسام.

صعوبات الإنتاج المحلي

يعتقد البسام أن الإنتاج المحلي تواجهه صعوبات فهو لا يخفي انزعاجه في كل مرة أذكر له تجربة عمله المسرحي "المقايضة" وقد عرضت لليلتين فقط وبين العرض الأول والثاني مدة ثلاثة أشهر. والحقيقة أن كل من مسرحيته " ذوبان الجليد " و " المقايضة " بجميع العروض لم تتجاوز العشرة عروض (وكلا العاملين من إنتاج) 2003 قدمت الأولى ثلاثة عروض في الكويت وعرضين آخرين في العاصمة المصرية " القاهرة، بينما اكتفت الثانية بليتين.

ويعتقد البسام أن قلة العروض واحد من أهم الصعوبات، ذلك أنها تساهم بعدم انتشار العمل ونضجه واستقراره، "وكان العمل لا يستحق مع كل الجهد الذي بذلته فيه أن يعرض لأطول فترة ممكنة". ففي مثل هذه الظروف يحتاج العمل إلى تمويل إضافي و ميزانية أكبر لعملك في بيئة عدم استمرارية العرض، وكل هذا بعيد عن معايير شبك التذاكر، فالمعنى هنا هو قيمة العمل الفني".

ويعتقد البسام أن أسباب ذلك تكمن في عدم وعي الجهات المسؤولة بالثقافة. فميزانية الكويت للبرنامج والإنتاج الثقافي لا تذكر أمام الميزانيات الأخرى وهو يذكر كمثال على ذلك ما تصرفه الحكومة البريطانية على الثقافة، إذ تخصص الحكومة البريطانية مبلغ 320 مليون جنيه إسترليني سنوياً. ولا يخفي البسام بأسه من الوضع الثقافي والمسرحي في الكويت تحديداً في الوقت الراهن. وحينما تسأله عن الأسباب، يرى أن الأسباب تكمن في عدم وجود أي خطة مركزية موضوعة من أجل المسرح أو الأعمال الفنية الأخرى، فأى هوية لهذه الأنشطة ؟ ليست هناك خطة.

ولكن ماذا عن مهرجانات المسرح والجوائز التي تقدم خلالها ؟ ألا تعد هذه ضمن ما هو مطلوب لتنمية مثل هذه الأنشطة؟

ولا يجد البسام في كل هذه الأنشطة ما يعتقد مطلوباً، متسللاً بصوت عال " متى سمعت بأخر مرة عن شاب كويتي قال إنه سيحترف الإخراج المسرحي؟! إن لم يكن على استعداد لدخول معمة حالة العرض والطلب وإنتاج أعمال مسرحية للقمة العيش. متى صدرت آخر مرة مسرحية كويتية ؟ كم عملاً يستحق أن يخرج وبالتالي يعرض بناء على رغبة الجمهور؟ كم من ممثل كويتي قادر على الوقوف مع ممثلين عرب ويأخذ ويعطي في عمل مسرحي في اللغة العربية الكلاسيكية ؟ كم من مرة أقيمت ورش مسرحية لتطوير هذه الشخصيات الفنية ؟ هل زادت عدد دور العرض المسرحية ؟ كم من هذه الأسئلة تمت الإجابة عنه؟!.

ويعلل هذا بدور الثقافة في المجتمع الكويتي والنظرة الخاصة الى العمل الثقافي الذي لا يزال في طور أعمال الهواة دون مفهوم الاحتراف والخطة ذات المراحل، وهذا بالطبع لا يعني أن ظروف الإنتاج الدولية هي من السهولة التي يمكن العمل فيها من دون جهود.

ويضيف سليمان " 10 سنوات وأنا أتعب على عمل الإنتاج الدولي. وهو موضوع تراكمي، استطعت من خلاله أن أراكم خبرة الإنتاج الدولي، وهو ما يدل على نجاح هذه الأعمال ثقافياً وفنياً وتجارياً".

كليلة ودمنة

وهذا ما حققه البسام لإنتاج عمله الجديد " كليلة ودمنة " إذ استطاع أن يجمع له منتجين من ثلاث جهات تبنت العمل فأول مرة تجتمع دار الآثار الإسلامية من الكويت مع مسرح البريبيكان البريطاني والمؤسسة اليابانية لإنتاج عمل. وبدأ المشروع بتكليف من دار الآثار الإسلامية بكتابة عمل حول " كليلة ودمنة ". والتفكير بالمسرحية من حيث كونها قصة مروية على لسان الحيوانات. ليكتشف البسام خلال التحضير للعمل، ومن قراءاته لصاحب ترجمة كتاب قصص "كليلة ودمنة " عبد الله بن المقفع شخصية تدعو للتفكير حولها. فقد وجد أنه من خلال هذا الكتاب وكتبه الأخرى مثل الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب آخر حول نظام مركزي للقوانين، كان يعد لمشروع مثل وزارة للعدل. وهو بالنسبة له أول من واجه مسألة دور المثقف في توجيه الدولة الإسلامية الناشئة، ودخل مخاض العملية السياسية وفي مشروعه الإصلاحي من أجل العدالة الاجتماعية، الجند والمحاكم، السلطة والخليفة في الدولة. كما يعتقد بأن ابن المقفع كان ينادي بوضع ما يشبه الدستور لتنظيم العلاقة بين الخليفة والأمة.

وهو أيضاً، أول من دخل في حوار عقلائي معها (السلطة) مازجاً إياه بمفاهيم دينية. وجاهد لمشاريع إصلاحية داخل الدولة الإسلامية الناشئة. هذا إلى جانب إمكاناته الفنية في تطوير النثر. فقد كان فناناً، كاتباً متميزاً. يتحدث بأكثر من لغة، إلى جانب كونه رجل تنوير. لم ينقطع عن نصح السلطة، وسعى لتأسيس معايير فكرية لدور الخليفة كقائد للأمة.

ولا يخفي البسام إعجابه بأسلوب ابن المقفع في " كليلة ودمنة " في النصيحة غير المباشرة، ونقله لفكرته بأسلوب غير مباشر. مما ساعد البسام على توفير تصور فني لتقديمها كعمل مسرحي.

ويعتقد البسام أن قصص " كليلة ودمنه " قابلة لأن تروى من قبل السلطة بطرق شتى وكل حسب طريقتة الخاصة. وهو ما أعطاه مساحة للخلق والاستخدام القصصية كتعبير عن الواقع واستخدام السلطة لها للتعبير عن أهدافها.

شكل العمل الفني وهويته

ثمة من يتساءل حول هوية العمل المسرحي والمسرح وما إذا كانت، (وخاصة مع ما يقدمه البسام من أعمال مسرحية هي عبارة عن إعادة خلق لعمل مسرحي شهير يسقط دلالاته على واقعنا والمعاصر) هي أعمال معبرة عن هويتنا وواقعنا وأصالتنا؟ فجملة من أعماله هي إعادة صياغة لمسرحيات شكسبير، مثل " مكبث / مكبث تحت فانوس 60 وات " هاملت / مؤتمر هاملت - هاملت في الكويت- قمة هاملت " وروميو وجولييت / المقايضة " ويعمل الآن على مسرحية " ريتشارد الثالث " بتكليف من الفرقة الملكية الشكسبيرية لتقديمها باللغة العربية وهو ما سيحدث للمرة الأولى في تاريخ هذه الفرقة العالمية".

وقال البسام: "مكونات الفعل المسرحي ثلاث هي النص، كونه بصرياً، لغوياً، و اللافظ - الممثل، وأخيراً الجمهور. ونحن قد أخذنا هذه التوليفة من طقس غربي. وهناك بحوث ومصادر تقول إن في منطقتنا الطقوس نفسها في الحضارات السومرية والبابلية كما أن للشاعر الجاهلي جانيا مسرحياً. وأنا أعتقد أياً كان أصله، في هذه المرحلة موضوعاتنا وموضوع أعمالنا هو الذي سيكيف لنا مثل هذه الأعمال".

ويضيف البسام "نحن نعيش في فترة تاريخية تطرح علينا مجموعة من القضايا مثل دور الفرد في المجتمع ودور هذا الأخير تجاه الفرد، علاقة الفرد بالسلطة،

لديكتاتورية، ومن هنا أرى ارتباطاً ضمناً بين المسائل المطروحة والحلول والمضامين الشكسبيرية.

ويقول "إن مشروعاً مثل "كليلة ودمنة" هو مشروع قصة تعود أحداثها إلى (133هـ-145هـ)، وهي عبارة عن ملحمة تاريخية. ومن خلال تصرفي بالأحداث والدراما. صارت تدور حول شخصية ثانوية هي حياة عبدا لله بن المقفع فلا شك أن في تركيبة الملحمة التاريخية جوانب شكسبيرية تأثرت بها من خلال البيئة التي أعطتني الأسس ولكن هذه التجربة عربية. وهي تأتي ضمن مراحل من التجارب التاريخية لنضال الأشقر و قاسم محمد وسعد الله ونوس وآخرين.

ويعتقد أن الجانب الابتكاري الحقيقي لن يصل إلى الجمهور إلا حينما يقدم باللغة العربية.

ويضيف "حينما عملت على "هاملت" فقد عملت من أجل خلق تساؤلات حاضرة في الواقع العربي، وبالمعنى نفسه بالنسبة لـ "كليلة ودمنة" وليس من أجل إضافتها إلى رصيد الأعمال المسرحية. وإنما لعرض الألعاب السلطة الآن وراهنها.

ويمضي البسام في إيضاح تصوره فهو انطلاقاً من "هاملت" أو ريتشارد الثالث " أو باختياره موضوعاً من البيئة العربية، لا يقوم إلا باستخدام البعد التاريخي في خلق مناورة مع الجمهور، "مناورة فكرية" على حد نعتها لها. فأنت تشاهد قصة هاملت، ولكنك تشاهد الحرب الأهلية في لبنان، الطاغية في العراق، أو أي مشاكل يعانيتها المواطن العربي.

وهو بعد ذلك، يرى أن أسلوب الطرح يفرض نفسه على هذا العمل وبالتالي صيغة الفعل المسرحي المرغوب مع الطرح الدرامي والتناغم البديهي. وهذا البحث هو الذي يؤدي بك إلى تألف غريب. ذلك أن لكل رغبة تعبيرية شكلها الذي يتناسق مع أبعادها وأهدافها.

سليمان البسام في سطور

• مواليد الكويت، 1972.

• تخرج من جامعة أدنبرة عام 1994.

• عمل كمساعد مخرج في لندن قبل أن يؤسس فرقة المسرحية "زاووم" عام 1996.

• تأليف مسرحية "كليلة ودمنة" أو مرآة الملوك 2005، بتكليف من دار الآثار الإسلامية.

• ألف وأخرج مسرحية "نوبان الجليد" 2003.

- ألف وأخرج مسرحية "المقايسة" 2003. بتكليف من الهيئة العامة للشباب والرياضة.
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية لعام 2004، في مجال الإخراج المسرحي عن عمله المسرحي "مؤتمر هاملت".
- حاز وفرقة المسرحية "زاووم" عن مسرحية "مؤتمر هاملت" على جائزة النقاد الأولى في مهرجان أدنبرة الدولي عام 2002. وجانزتي أفضل عرض و إخراج من مهرجان القاهرة المسرحي
- التجريبي 2002.
- حصل على عدة جوائز ورشح ضمن أفضل عشرة مخرجين واعدین في مهرجان ديجون في فرنسا عام 1997.
- عرض في عدة مهرجانات دولية، وفي عدد من العواصم والمدن العالمية وهو يطوف بأعماله المسرحية الناجحة